الفصل الثاني
الإبادة النووية

من بين نبوءات القرآن التي تتعلق بأحداث عصرنا الحاضر والاختراعات التي تمت فيه.. نجد أن البعض منها على جانب كبير من الأهمية، وله وقع كبير على المستوى العالمي. وإحدى هذه النبوءات تتعلق بالأخطار المتوقعة لما هو معروف باسم الإبادة النووية (Nuclear Holocaust).

وقد جاءت هذه النبوءة في زمن ما كان للإنسان أن يتصور وقوع انفجار نووي مهما جمح به الخيال أو هامت به الأفكار. ولكن.. كما سنبينه فيما يلي.. هناك بعض الآيات المعيّنة في القرآن الكريم تتحدث بوضوح عن أجسام دقيقة تبدو وكأنها عديمة القيمة، ولكنها توصف بأنها مخازن لطاقة عظيمة، وكأن نيران الجحيم الموقدة قد أغلق عليها بداخلها. ومما يثير العجب والدهشة البالغة أن هذا هو بالضبط ما تذكره حرفيًا الآيات التالية:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۞ الَّذي جَمَعَ مَالا وَّعَدَّدَهُ ۞ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۞ كَلا لَيُنْبَذَنَّ في الْحُطَمَةِ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۞ نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ ۞ الَّتي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ۞ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤْصَدَةٌ ۞ في عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ (١٠٤ الهمزة: ٢-١٠)

أي الويل لكل مغتاب عياب، الذي جمع ثروة من الأموال وأخذ يعدها ويكرر عدها مرة بعد أخرى، وهو يتصور أن هذه الأموال سوف تمنحه الخلود والبقاء. كلا! إنه سوف يُترك في "الحطمة"، وما يدريك ما هي "الحطمة"؟ إنها نار موقدة من لدن الله تعالى، سوف تنفذ إلى القلوب. إن

هذه النيران محبوسة داخل أعمدة تتمدد فتُكَوِّن أعمدة من النيران.

هـــذه السورة القصيرة تحمل في كلماتها الكثير من المعاني والعبارات المذهلـــة، والـــتي كانت بعيدة تماما عن أفكار وتصورات الناس في ذلك الزمن الذي ذُكرت فيه. وإنه لمن العجيب حقا أن يذكر القرآن المجيد أن أولـــئك الآثمـــين الذيـــن يتصـــفون بصفات معينة.. سوف يُقذفون في "الحطمـــة"، وهي تعني الجزيئات الصغيرة الدقيقة التي نراها عادة تسبح في الهواء عندما يتسرب شعاع من الضوء إلى داخل حجرة مظلمة.

وتذكـــر القواميس المعتمدة للغة العربية أن للفظ "الحطمة" أصلَين.. لكل منهما معنى خاص الأصل الأول هو "حَطَمَه"، بمعنى "دَقَّ وسَحَقَ" أو "جعلـــه قطَعـــا وأجزاءً صغيرة جدا". والأصل الثاني هو "حِطْمَة"، بمعنى "الجـــزء الصغير الذي لا قيمة له". والحِطْمة هي الجزء الذي ينتج عن دق شيء وكسره وسحقه وتحويله إلى أصغر مُكوناته.

ويمكن أن ينطبق هذان المعنيان على أصغر أجزاء من أية مادة يمكن أن تنقســـم إلى أن تصل إلى أصغر أجزائها القابلة للانقسام. وحيث إن فكرة انشطار النواة لم تكن قد وُلدت بعد منذ أربعة عشر قرنا من الزمان، فإن أقـــرب تعبير يصف هذا الانشطار النووي هو لفظ "الحطمة" وهو أيضا أقرب ما يكون من "atom" من ناحية اللفظ أيضا. ولا يكاد المرء يفيق من العجـــب لمـــا يعلنه القرآن الكريم من أن يوما ما سوف يأتي حين يُلقَى الإنســـان في أتـــون الحطمة، أي في جحيم الانشطار النووي، حتى يتبع القرآن ذلك بذكر أمر آخر أكثر عجبا وأشد إثارة للدهشة.

فالقرآن المجيد يُبين ويشرح ماهية الحطمة، فيقول إنها نار الله الموقدة، وإنهـــا مؤصـــدة داخلها ومحبوسة في أعمدة ممتدة. كذلك فإنه يقول إن الإنسان حين يُلقى في هذه النيران فإنها سوف تنفذ إلى قلبه مباشرة وكأنه لا يوجد ما يمنعها من قفص صدري أو أي شيء يقف في طريقها. وهذا يشير إلى أن هذه النار مختلفة تماما.. فهي تهلك القلب قبل أن تحرق الجسم

الخارجي. ومن المعلوم أنه لم يكن الإنسان في ذلك الزمن يعرف نارا يمكن أن تـــنفذ إلى القلـــب مباشـــرة بهذا الشكل الذي جاء وصفه في الآيات الكريمة.

ولكـــن ليست هذه وحدها جميع العوامل المثيرة للدهشة والعجب في هـــذا الوصف، فما يأتي بعد أشد غرابة وأكبر عجبا. فقد ذُكر عن هذه الـــنار أنها مؤصدة في أعمدة ممتدة، وهي تنتظر أن تنفذ إلى قلب الإنسان حين يأتي الزمن الذي تنطلق فيه هذه النيران من محبسها.

إنهـــا حقا دهشة بعد دهشة، وعجب يتلوه عجب، يتراكم جميعه في نطـــاق هـــذه العـــبارات القليلة والآيات البيّنة التي تحتويها هذه السورة الكـــريمة. فأولا يأتي الإعلان بأن زمنا ما سوف يجيء حين يُلقَى الإنسان في أصغر جزء من أجزاء المادة.. أي "الحطمة"، ثم يأتي وصف هذا الجزء الأصغر من المادة وما يحتويه من نيران، وأن هذه النيران محبوسة في أوعية تظهر في شكل الأعمدة الممتدة.

ولا يعـــني قـــذف الإنسان في هذه الحطمة الصغيرة الدقيقة أن فردا واحدا سوف يُقذف فيها، فالإنسان هنا اسم عام، وقذفه في الحطمة يعني خضـــوع جـــنس البشر لآفاتها ومصائبها التي يهلك فيها. وقد صار من الممكـــن حدوث هذا في زماننا المعاصر فقط، حين استطاع الإنسان أن يكتشف أسرار الذرة ونواتها بما تحويه من خزائن الطاقة الجبارة. وهذا هو الزمن الذي يمكن فيه لهذه الطاقة أن تنطلق من محبسها وتكتنف مساحات شاسعة تبلغ الألوف من الأميال المربعة، بكل ما تحتويه هذه المساحات من مـــبان أو نـــبات أو إنسان. وهكذا فإن الأمر الذي كان من المستحيل حدوثه منذ أربعة عشر قرنا من الزمان قد صار اليوم أمرا حقيقيا معروفا، يستطيع أن يفهمه الجميع حتى الأطفال.

إن أكـــثر تعبيرات العجب إطنابا لا تعطي هذه النبوءة العظيمة حقها في الوصف والتعبير. ولا يقل عن ذلك عجبا أن الناس في الأزمنة الماضية

لم يدركـــوا أهمـــية هذه السورة القصيرة.. سورة الهمَزة، وإلا لكانت قد نفذت إلى عقولهم وعقائدهم. فكيف لم تلفت هذه الآيات أنظارهم و لم يثر أحد منهم اعتراضا أو تساؤلا عن كيفية دخول المرء في حطمة دقيقة، ولعـــلهم ظـــنوا أن هذه الآيات لا تتعلق بأحداث هذا العالم، وإنما تنطبق على العالم المجهول الذي يختص بالحياة الآخرة. لذا فقد تجنب العديد من المفسرين الخوض في تفسير هذه الآيات، والقليل ممن قام بتفسيرها أراحوا أنفســـهم بأن نسبوا أحداث هذه الآيات إلى يوم البعث والنشور، ولكن بغـــير تقـــديم أي دليل لإثبات أنها كذلك. وهكذا.. بغير إدراك المعاني الحقيقية التي تحتويها هذه الآيات الكريمة.. كان من السهل عليهم أن يلقوا بها إلى نطاق عالم المجهول.

وكان المستشرق سيل (Sale)، أحد المستشرقين الغربيين الذين قاموا بـــترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية، قد واجه المشكلة نفسها لدى ترجمة كلمة "الحطمة" حرفيا. وببساطة.. قال سيل إن الآية تعنى أن عددا كـــبيرا مـــن الناس سوف يُلقون في *Al-hotamah* بغير أن يُترجم كلمة "الحطمـــة" إطلاقـــا. وبذلك لم يكن أمام الناطقين بالإنجليزية أية سبيل للاعتراض على إمكان إلقاء عدد كبير من الناس في جزيء دقيق متناه في الصـــغر. وحيـــث إنهم كانوا يجهلون تماما ما تعنيه كلمة *hotamah* فقد أعطـــوا لخيالهم العنان في تصور أنها عبارة عن بهو واسع كبير من النيران المتقدة وتسمى حُطمة. وبهذه الاستراتيجية أنقذ "سيل" نفسه من الارتباك الذي واجهه في ترجمة الكلمة، بيد أنه فشل في نفس الوقت أن يعطي هذه النبوءة المدهشة حقها الذي تستحقه.

إن الـــنار التي تتحدث عنها الآية، سواء كانت لهيبا مدمّرا هنا على الأرض أو جحـــيما مســـتعرا في الآخرة، لا يمكن بأية حال من الأحوال ضـــغطها وحبسها في نطاق المكان الصغير المتناهي في الصغر الذي تشغله "الحطمة". غير أن هذه لم تكن هي المعضلة الوحيدة التي واجهت "سيل"

والمفسرين الأوائل. فماذا عن النيران المحبوسة في أعمدة ممددة، وهو أمر كان من المستحيل تصوره قبل أن ينبلج فجر العصر النووي؟ أما الآن فقد أمكن أخيرا حل اللغز المستعصي واتضحت تماما جميع أركانه.

وما لم يكن المرء على معرفة بالتوصيف العلمي لكيفية حدوث الانفجار النووي والتغييرات التي تحدث نتيجة لذلك داخل النواة، فإنه يصعب على المرء أن يفهم تماما معنى التعبير القرآني: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾. إذ يصف الخبراء في شؤون الانشطار النووي الحالة الحرجة للكتلة التي توشك على الانشطار بأنها تتمدد وهي تخفق وتنبض تحت الضغط الهائل الذي يتنامَى بداخلها. وينتج الضغط بسبب الاستطالة والتمدد الذي يحدث للأنوية قُبيل انشطارها، وأثناء هذه العملية ينشطر عنصر من ذوي الأوزان الذرية العالية إلى عنصرين كل منهما له وزن ذري يقل عن العنصر الأول. والمجموع الكلي للأوزان الذرية للعناصر المتكونة تقل عن الوزن الذري للعنصر الأول، الذي عادة ما يُطلق عليه اسم العنصر الثقيل. والجزء البسيط من الأوزان الذرية التي تم فقدها في هذه العملية يتحول إلى طاقة. وهذا لا يُشكل بالطبع النمط الوحيد للقنبلة النووية، ولكننا اخترنا هذا النمط البسيط لوصف عملية العَمَد الممددة.

وحين ننتقل إلى موضوع كيفية نفاذ هذه النيران إلى القلوب مباشرة، نقدم فيما يلي التفسير العلمي لهذه الظاهرة:

عند لحظة الانفجار.. تنطلق على الفور كميات كبيرة من النيوترونات وأشعة جاما وأشعة إكس، وترفع أشعة إكس درجة الحرارة إلى مستويات عالية جدا تشبه درجة حرارة الشهب عند اصطدامها بالغلاف الجوي، وهي بذلك تُكَون كرة كبيرة من النيران ترتفع بسرعة إلى أعلى على متن الحرارة الشديدة المنبعثة نتيجة للانفجار النووي. وهذا هو سرادق النار الذي يرتفع بما يشبه شكل نبات عش الغراب، وهو ما يمكن رؤيته في كل مكان من مسافات بعيدة.

كذلـــك تنطلق أشعة إكس مع النيوترونات في اتجاه جانبي، وإلى جميع الاتجاهات، فتُسبب ارتفاعا شديدا في درجات الحرارة، مما ينتج عنه احتراق كـــل شـــيء في طريقها. وتفوق سرعة حركة هذه الموجة الحرارية سرعة الصـــوت عدة مرات، فتخلق أيضا موجات اهتزازية رهيبة. غير أن الأسرع مـــن كل هذا والأكثر نفاذا، هي أشعة جاما التي تسبق سرعة انتقال الجبهة الحرارية، حيث إنها تتحرك بسرعة الضوء. وهذه الأشعة تتردد بسرعة كبيرة جـــدا حتى إنه بمحض تأثير سرعة ترددها هذا.. تنفذ على الفور إلى القلب وتصـــيبه بسكتة فورية. فالموت لا ينتج بفعل الحرارة الشديدة الحارقة الناتجة عـــن تـــأثير أشعة إكس، بل إنها الطاقة الجبارة لأشعة جاما هي التي تسبب الموت الفوري. وهذا هو بالضبط ما يقرره القرآن المجيد.

كذلـــك يذكر القرآن في سورة الدخان أن سحابة قاتلة من الدخان المحتوي على الإشعاع المهلك سوف تكتنف الناس، فيقول:

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۞ يَغْشَى النَّاسَ ۖ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤٤ الدخان:١١-١٢)

وتتضح خصائص هذه السحابة الدخانية بشكل أكبر من الآيات التالية:

﴿انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۞ انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ۞ لا ظَلِيلٍ وَّلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ۞ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ۞ كَأَنَّهُ جِمَالَاتٌ صُفْرٌ﴾ (٧٧ المرسلات: ٣٠-٣٤)

إن كـــلمة ﴿انْطَلِقُوا﴾ تشير إلى أن الإنسان سوف يتوجه تدريجيا إلى مرحلة زمنية حيث يكون عليه مواجهة هذه السحابة الدخانية الرهيبة التي لا تمـــنح ظلا ولا تُوَفر حماية. فالظلال تمنح الحماية من الحرارة الشديدة، وتقـــف السحب حائلا بيننا وبين الحرارة المستعرة لأشعة الشمس. ولكن

لا يوجـــد في هذه الآيات ذكر للشمس، وإنما ذُكِر اللهب وشرر النيران الـــتي لا يحجـــبها ظل ذلك الدخان، بل إن ظل ذلك الدخان نفسه هو الوسيلة التي تنقل العذاب الأليم الذي تُشعه تلك النيران، فلا ينجو شيء مـــن هـــذا الظل، ولا يكون أحد تحته في مأمن من الاحتراق. وهذا هو الوصـــف الدقـــيق لتأثير سحابة الإشعاع النووي. وبالإضافة.. فإن هذه الســـحابة الدخانية سوف تموج فيها النيران حتى إن ألسنة اللهب والشرر المتصاعد يبدو في لون الجمال ذات اللون الأصفر الفاقع، بينما يبلغ حجم ذلـــك الشرر حجم القصور والقلاع. ولعل أوجه الشبه بين ألسنة اللهب والجِمـــال لـــيس فقط في اللون، وإنما في شكل انحناءات سنامات الجمال أيضاً.

إن الناس الذين كانوا يعيشون في القرن السابع الميلادي.. حين نزلت هذه الآيات الكريمة.. لم يكن لديهم التصور اللازم لإدراك خطورة هذه السحابة الدخانية القاتلة، فإن كيفية حدوثها كان أبعد مما تعيه مداركهم. أمـــا الـــيوم فإننا ندرك ماهية الانفجارات النووية ونعلم حقيقة السحب المشعة التي تنتج عنها.

وإلى هـــذا الوصف المشؤوم والمصير المحتوم تشير أيضا آية أخرى في نفس السورة من القرآن المجيد حيث تقول:

﴿وَيْلٌ يَّوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٧٧ المرسلات:١٦)

ويمكـــن أن تشير لفظة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ إلى يوم القيامة، كما يمكن أيضا أن تشير إلى زمن هنا على الأرض، حِين يرفض أولئك ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾ الإيمان بآيـــات الله تعـــالى، فيغشاهم عذاب أليم من دخان يلقي بظلال الموت والهـــلاك على كل ما يوجد من تحته. وسوف تتحرك هذه الظلال المميتة وتنـــتقل من مكان إلى مكان، فلا تحمل في طياتها أي أمن أو سلام، بل ظـــلال من عذاب وآلام. وذلك هو الزمن الذي حين يشهد فيه الإنسان

ذلك العذاب الأليم، فحينذاك يعود ويرجع أخيرا إلى الله تعالى، ويسأله أن يـــرفع عنه هذا العذاب الذي لا يُحتمل. غير أن غضب الله سبحانه حين ينْزل بساحة قوم.. يكون زمن العفو والمغفرة قد ولّى وانقضى. وفي هذا يقول القرآن المجيد:

﴿أَنَّـــى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۞ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ (٤٤ الدخان:١٤-١٥)

إن النـــبوءات الـــتي تحتوي على تحذير وإنذار إنما تهدف إلى إيقاظ الإنسان وتنبيهه إلى أخطار الكوارث التي تحدث نتيجة لسوء عمله. ومن الواضـــح أن النبوءات التي ذكرناها فيما سبق تختص بالعصر الذي نعيش فيه، وهي تتحدث عن أمور كانت مجهولة تماما للناس في العصور الأولى. وإن المـــرء ليعجـــب إن كان الله تعالى قد كشف للرسول ﷺ عن جميع مدلـــولات هذه النبوءات بكل تفاصيلها، غير أن الدقائق من الأمور التي وصفها ﷺ والوضوح الذي وصف به الكثير من الأمور الغيبية المستقبلية، تـــترك لـــدى المرء انطباعا وكأنه ﷺكان يشاهد هذه الأحداث تمر أمام عينيه، كأنها كانت تقع في فيلم سينمائي على مسرح الأقدار. ومع ذلك فقـــد تعـــين على الإنسان الانتظار أكثر من ألف عام قبل أن تبدأ هذه النبوءات في التحقق. و لم يكن لهذه الأحداث أن تنتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة إلا بعد حلول عصر الذرّة.

إن فظاعة الكارثة النووية أمر مهول ورهيب، ومع ذلك فإن الإنسان لا يـــبذل الجهـــد الكافي أو اللازم للبحث عن جذور وأسباب هذا الشر المســـتطير. ونادرا ما ينفذ بصر الإنسان إلى أعماق السطح الذي يتفرس فيه، وخاصة إذا كان يتعلق بهذه الأمور. وقليل من الناس من يستطيع أن يختـــبر أفكـــاره ويتأمل بواطن نفسه من أجل الكشف عن الوجه الخفي لجوانـــب الشـــر التي تقبع في أعماق النفس. وهذا نوع من العماية تتعلق

بالاعوجـــاج الكـــامن في الإنســـان. فكلما كان هو نفسه المسؤول عن التسبب في حدوث المعاناة وانتشار الشرور من حوله، كلما قصرت عيناه عن رؤية يديه وهي تخلق هذه الشرور والمعاناة.

هـــذه هي سلسلة الكوارث التي نبحثها والتي تؤثر على العالَم بأجمعه. ويســـتطيع العالِم أن يشرح ظاهرة الانشطار النووي، ولكنه يفعل ذلك في نطـــاق الأســـباب الطبيعية والمادية فقط. ولكن حين تُستخدَم هذه القوى المدمـــرة الجـــبارة في تدمير أمن الإنسان، فلا يقع اللوم حينئذ على العلماء الذين خلقوها. إن جذور المشكلة تنبت في مكان آخر، فالمسؤول الحقيقي دائما هو القوى العظمى التي تتخذ القرارات الرعناء باستخدام العنف الذي يعصف بأمن العالم كله. وبالرغم من عظمة تلك القوى.. فهي لا تعدو أن تكون مجرد دُمَى في أيدي الإرادة الجماعية الأنانية للجماهير.

ورغم أن القرآن المجيد يتحدث عن الأحداث والتطورات العلمية بدقة بالغة، إلا أنه لا يسلك مسلك مدرس العلوم الذي يقدم العلوم كما هي، وإنمـــا يوجه الانتباه إلى الأسباب غير الأخلاقية لاعوجاج وفساد السلوك الإنســـاني. وهو حين يذكر لنا أخطار الزناد وما ينتج عنه، فإنه لا يركز الانتـــباه عـــلى الزناد فقط بل على الإصبع الذي يضغط عليه، وهذا هو الهـــدف من ذكر تلك التحذيرات في القرآن المجيد. وفي هذا الشأن يذكر القرآن المجيد تكرارا أن كل البشاعة التي تصيب الإنسان، يكون هو نفسه المســـؤول عنها، ولا يقع اللوم إلا عليه. وعلى هذا فإن إجراءات الوقاية التي يبيّنها القرآن تتعلق بإصلاح أخلاق الإنسان وتقويم سلوكه. ويؤكد القـــرآن المجيد على أنه إذا غير الناس من مسلكهم، وأصلحوا من أنفسهم بمـــا يتفق مع الهدي الإلهي، فإن هذا سوف يخلق المناخ الصحي المناسب واللازم لإقامة العدل واستمرار الحياة.

إن مـــنار النـــبوءات القرآنية يُبين بوضوح أماكن الصخور التي ينبغي تجنبها، والقنوات التي يتحتم الإبحار فيها لضمان السلامة. ولكن يبدو أنه من

غـــير المحـــتمل لهؤلاء الذين يتولون قيادة سفينة شؤون الإنسان أن يلقوا بالا للـــتحذيرات ويقودوا السفينة عبر الأخطار المحدقة ليصلوا بها في سلام إلى بر الأمـــان. وبـــدون التحليل العميق والحقيقي لسلوكيات الإنسان على كل مستوى من مستويات أنشطته، فليس هناك من حل معقول يمكن أن يتصوّره أحـــد لحل المشاكل التي تجابه الإنسان اليوم. وبعبارة بسيطة نقول إن الأمر كلـــه يـــتوقف على إحياء القيم الإنسانية الأساسية مثل الصدق، والأمانة، والكرامة، والعدل، والمساواة، والاهتمام بمصالح الآخرين، والإحساس بمعاناة الـــناس.. حـــتى ولو لم يكونوا من الأقارب والمعارف، والالتزام العام بفعل الخير. فإن أزلنا هذه العوامل من العلاقات الإنسانية، فلا ننتظر أو نتوقع شيئا سوى أن تحل بنا الكارثة. وهذه هي النتيجة المنطقية الوحيدة.

إن سورة القمر تشرح هذا الأمر بما يتعلق بالأقوام السابقة التي لم تُلق بالا للتحذيرات التي أُبلغوا بها على لسان رسل الله تعالى الذين جاءوهم في زمانهم. وترتب على ذلك أنهم جميعا، وبغير استثناء، قد شاهدوا بأعينهم الـــنهاية المحـــزنة الـــتي أُنذروا بها، ولم تنفعهم توبتهم بعد فوات الأوان. والغرض الوحيد من ذكر هذه التحذيرات هو أن تتعظ الأجيال المستقبلة، ولا تعير تلك التحذيرات أذنا صمّاء. وهكذا يقص علينا القرآن المجيد أنباء الكـــوارث التي أصابت تلك الأقوام لكي تتعلم الأقوام التالية فنون الحياة من دروس الموت الذي أصاب السابقين. يقول تعالى:

﴿وَلَقَـــدْ جَاءَهُمْ مِّنَ الأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۞ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ (٥٤ القمر:٥-٦)

فإن لم يتعلم الناس الدروس المستفادة، فلا يقع اللوم إلا عليهم عما يترتب على ذلك من كوارث تنتظرهم لتعصف بهم.

وتـــتحدث سورة طه أيضا عن موضوع الإبادة النووية الذي نبحثه، وتذكر النتائج النهائية التي تؤول إليها الأمور، وتشير بعض الآيات إلى أن

كـــبرياء وعجـــرفة القوى العالمية العظمى في هذا الزمن، سوف تنكسر وتتحطم، ولكن لن ينمحيَ الجنس البشري من الوجود.

وتذكر الآيات المعيّنة أن هذا الأمر لن يؤدي إلى فناء البشر جميعا، وإنما ســـوف تتفتت وتُسوَّى بالأرض قوة تلك القوى السياسية المتعجرفة فقط. ومـــن جنـــبات قبورهم سوف ينبعث ويقوم النظام العالمي الجديد. إن هذه القـــوى العظمى التي هي كالجبال الراسية سوف تُدق وتُسحق وتُسَوى بها الأرض، حـــتى لكأنها قد صارت مثل الأرض المنبسطة التي تكسوها الرمال، فلا ترى فيها أعالي ولا أسافل، ولا عوجا ولا أمتا. يقول تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ قُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۞ فَيَذَرُهَا قَاعًـــا صَفْصَـــفًا ۞ لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ۞ يَوْمَئِذٍ يَتَّـــبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلا هَمْسًا﴾ (٢٠ طه:١٠٦-١٠٩)

إنه الله تبارك وتعالى، هو الذي سوف يحقق بيده الكريمة هذا التحوّل المدهش. والجبال في هذه الآيات ليست سوى استعارة مجازية للتعبير عن القـــوى العظمى والأمم والشعوب. ويذكر القرآن المجيد أنه متى تم سحق عجرفتهم وزال تكبرهم واستقام أمرهم، فحينذاك فقط سوف يستمعون إلى نـــداء الداعي إلى الله الذي لا عوج لـــه. وهذا الدمار الذي يذكره القـــرآن المجـــيد لا ينتج إلا عن إبادة تتم بانفجار المئات من التفجيرات الـــنووية، مما يعني أن الإنسان لن يتعلم الدرس بسهولة، وأنه لا بد من أن يُطأطَـــأ رأسُ كـــبره تحت ضغط وثقل فظاعة الكوارث التي تلم به. ومع رسالة الوعيد المرعبة هذه.. تأتي أيضا رسالة جليلة تحمل الأمل بأن الفناء لن يعم الجنس البشري بأكمله، بل إنه سينجو من هذه الكوارث في نهاية المطـــاف ويدلف إلى عهد جديد من عهود النور. وسوف يتعلم الإنسان

كيف يصلح من أساليبه وسلوكياته.. إن لم يكن من قبل، فعلى الأقل من بعد أن يذوق ثمار سيئاته وعصيانه لله تعالى.

وفي سورة أخرى يحدثنا القرآن الكريم عن تغييرات ضخمة وشاملة في المناخ وفي جغرافية الأرض، وستكون لها طبيعة فظيعة مرعبة، حتى إنها ستُحَول وجه الأرض في أماكن كثيرة من البلاد والقارات إلى خراب ودمار شامل. وقد تكون هذه النبوءات عن الحالة بعد الإبادة النووية التي نتحدث عنها. وقبل حدوث هذا الدمار.. كانت نفس تلك الأراضي والأماكن تُعد من أكثر البقاع في العالم كله جمالا وسحرا في طبيعتها، وكانت فريدة في غناها الذي يبهر العيون ويخطف الأبصار. وإننا لنتمنى ألا تتحقق هذه النبوءة على الأقل من بين جميع النبوءات التي ذكرها القرآن المجيد. ويقيننا ليس في هذه الأمنية أية شائبة من عدم الاحترام للنبوءات التحذيرية التي ذكرها القرآن العظيم، بل إنها تنبع من إيماننا الذي لا يتزعزع في الرحمة العامة الشاملة لله تعالى – الله الرحيم الكريم. فإن جميع النبوءات التي تحمل الإنذار والوعيد، مهما كانت قوية، يتوقف تحققها على مدى استجابة الإنسان لها. وهناك المثل الذي ذكره القرآن المجيد عن قوم يونس عليه السلام، الذين نجوا من عقاب الله المقدّر لهم حين رجعوا إلى الله تعالى بتوبة صادقة نصوح، فهذا يضيء لنا اليوم نور الأمل. ورغم أنه لا يبدو هناك من سبب معقول يبرر التفاؤل، بالنظر إلى الانحطاط المستمر والمتواصل في القيم الأخلاقية لدى الإنسان، إلا أن نجاة قوم يونس تظل هي الأمل الوحيد الذي يمكن أن نتعلق به، وغير ذلك ليس سوى ليل أسود مظلم مرعب من اليأس الكامل. ولكن العلاج لأمراض العالم المتأصلة لم يعد في أيدي المسحاء الكذبة وأدعياء الدين، وإنما هو في يد الله تعالى وحده، إذا ارتفعت أيدينا إليه بالدعاء الصادق المخلص فقط. وربما يكون كلامنا هذا في لغة يصعب فهمها على الإنسان المعاصر لأنه على عكس ما اعتادت أذنه أن تسمعه. إن الله وحده هو العليم بحقيقة الأمور.